صفحة مجيدة من حال

الأدب والعلم في الجزائر

الدكتور محمد ابن شنب

استاذ الآداب العربية في الجامعة الفرنسية بالجزائر وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق

أأقول الدكتور ابوشنب، أم اقول الشيخ ابو شنب؟ والله ما ادري ما اقول. أما هو المرحوم فقد كان «شيخاً» وكان «دكتوراً». فاز في سنة ١٩٢٤ بشهادة الدكتوراه برسالتين اثنتين وضعهما باللغة الفرنسية، اما احداهما فاسمها «ابو دلامة» واما الاخرى فاسمها: «الالقاب الفارسية والتركية الباقية في لغة العامة بالجزائر». ولكن الناس في الجزائر خاصتهم وعامتهم لا يعنون بلقب «دكتور»، وانما يعنون بلقب «الشيخ» والفرنسيون انفسهم يعنون بالشيخ لا بالدكتور، وحتى زملاؤه اساتذة الجامعة اذا دعوه بأحب الاسماء اليه قالوا: «الشيخ ابو شنب» وهو نفسه كانت كلمة «الشيخ» احب اليه، واعذب في سمعه من كلمة «الدكتور»

ولعل سبب ذلك ان كلمة «دكتور» في لغة العامة بالجزائر لا تعظيم فيها ولا احترام. فأهل الجزائر اذا ذكروا عالماً او اديباً ولو كان افرنسياً وارادوا ان يذكروه بما يدل على الاجلال والاحترام قالوا «الشيخ فلان»، وهم يقولون «الشيخ فيكتور هيكو» و«الشيخ لامرتين» و«الشيخ باسطور» و«الشيخ جان جاك روسو» وغير ذلك. وتبعهم في ذلك الامر الفرنسيون الذين يتكلمون اللغة العربية في الجزائر. فكم مرة سمعت رجلاً فرنسياً من رجال العلم او الادب يقول: «الشيخ فلان» وهو يعني زميلاً له من العلماء او الادباء الفرنسيين

وكان صحفي جزائري زار مصر، فقالت جريدة «الشورى» الغراء انه دخل ادارة جريدة «السياسة» وقال: «اين الشيخ هيكل»؟. وهو يعني الدكتور هيكل. وقرأها الناس في الجزائر فلم يفهموا منها ما تريد، لانهم يحسبون الرجل قد استعمل كلمة «الشيخ» في موضعها، ما تجاوزه بها ولا عداه. وكانت جريدة عربية مشهورة في تونس اثنت على شيخ من شيوخ جامع الزيتونة فوصفته بانه دكتور من دكاترة الزيتونة! ظناً منها ان كلمة «دكتور» وكلمة «شيخ» معناهما واحد. على ان كلمة «دكتور» بدأت تترجح مكانتها اليوم في اذهان الناس بالجزائر ولا سيما في ناحية الطب. فقد عادوا يقولون عن الطبيب

« الدكتور فلان » اذا هم ارادوا ان يجلوه ويحترموه ، بعد ما كانوا يقولون عنهُ « الشيخ فلان » متى ارادوا تعظيمه واحترامه وعاد الادباء في الجزائر وتونس يستعملون كلمة « دكتور » في موضعها ، لا يخلطون بينها وبين كلمة « شيخ »

هذه واحدة . واخرى فان هذا الاستاذ المرحوم كان « شيخاً » قبل ان يكون « دكتوراً » فقد اشتغل استاذاً بالجامعة دهراً طويلاً قبل ان ينال شهادة الدكتوراه ، وكان في ذلك الامد قد نال احترام الناس ، فاعطوه لقب « شيخ ». وفي الحق ان لقب « شيخ » اولى بهذا المرحوم من لقب « دكتور» فقد كان — رحمهُ الله — متسماً بسمات « الشيوخ» اكثر مما هو متسم بسمات « الدكاترة » ، فهو مسلم جزائري ، وجزائري مسلم في كل شيء : في عقلهِ وادبهِ ، وفي اخلاقهِ وعاداتهِ . في لباسهِ وهندامهِ . تراهُ فترى على رأسهِ عمامة جزائرية (طوزبانطي) وتراهُ فترى على كتفيهِ « برنوساً » جزائرياً ، وعلى صدرهِ غلائل جزائرية ، ومعطفهُ معطف جزائري وسراويلهُ سراويل جزائرية عريضة ، وحذاؤهُ حذاء جزائري . وبالجملة فهو بقية سلف صالح مضى في عاصمة الجزائر ، ولم يبق منهُ اليوم الا أناس معدودون من خيارهم هذا الشيخ المرحوم

﴿تواضعهُ﴾ — عرفتُ فيمن عرفتُ من الناس رجلين في الجزائر هما من اشد الناس تواضعاً وزهداً فيما يرغب فيه الناس وربما لكون عليهِ من الشهرة والجاه وهما من اولى الناس بهما فقد تهيأ لهما من اسباب ذلك ما لم يتهيأ لكثير سواهما من المشهورين في الجزائر. اما احدهما فهو الدكتور محمد بن العربي (الطبيب) او الشيخ ابن العربي محمد كما يصفهُ الناس في الجزائر لانهُ موضع ثقتهم واحترامهم . وقد بلغ من احترام الطباء لمواهب الشيخ وفضله ان كان شاعر فرنسا وعالمها « فيكتور هيكو» وهو في ايام شيخوختهِ يماشي الشاب بن العربي ويجالسهُ وهو لايزال يومئذٍ طالباً في كلية الطب بباريس . وكان اذا رجع الى الجزائر يكاتبهُ بغير انقطاع. واجتمعنا بالدكتور بن العربي هذا مراراً وما زلنا نرجو ان نجتمع به . فكان يحدثنا عن ايام شبابهِ ، وعن ايام طلبهِ للعلم ، وعن اتصالهِ بفيكتور هيكو فيحدثنا ذلك كله حديثاً ساذجاً بسيطاً ، ولكنهُ حديث شيق جذاب ، يشوقك ويستهويك . يشوقك ويستهويك ، لانهُ كلهُ صدق ، وكلهُ صراحة واخلاص . ويشوقك ويستهويك لانهُ حديث كلهُ تواضع لا انانية فيهِ . وكان اذا حدثنا عن فيكتور هيكو قال : « كان الشيخ فكتور هيكو . . . . » و « قال الشيخ هيكو . . . » ، فنعجب منهُ نحن ابناء الحديث الحنك البسيط ونستحليه ،

واما الآخر فهو الدكتور او الشيخ ابو شنب ، وهو الذي اريد ان اتحدث عنه في هذا المقال. والدكتور بن العربي كما حبه الدكتور بن ابي شنب جزائري مسلم في كل شيء ، ويزيد عيه

انهُ اكثر تقشفاً : فهو لايلبس الجوارب (التقاشير) في اغلب الاحيان . ثم هما متفقان فيما سوى ذلك ، فكلاهما محافظ على القديم ، وكلاهما مؤمن قوي الايمان وكلاهما لا يقبل في دينهِ مناقشة ولا جدالاً . وكلاهما متواضع الى حد الخمول

اشتغل الدكتور بن العربي بالمسألة السياسية الجزائرية زمناً طويلاً ، ومع انهُ قد ابلى فيها بلاءً حسناً ، فقد كان في عمله وجهاده : متواضعاً لا يخاصم أحداً ، ولا يبتغي رآسة ولا وساماً ، ولو خاصم في السياسة وشاتم لأصبح في الجزائر من اقطابها المشهورين

وانقطع الدكتور ابو شنب للعلم ، فخدمهُ خدمات جُلّى ، وعمل له عملاً صالحاً ، وكان في عمله متواضعاً نزيهاً كما يجب أن تكون كرامة العلم

لقيت الشيخ المرحوم في شارع من شوارع الجزائر (العاصمة) ذات يوم ، فضينا معاً في حاجة وانا لتني اذ نادانا من بعيد رجل عرفتهُ انهُ يرغب الى الادباء ان ينظموا له منظومات يرفعها الى الاغنياء والاعيان . وأنا استمسن هذا الرجل ، ولا اطيق ان اراه ، وابيتُ ان ألبي نداءهُ ، ولكن الشيخ المرحوم قد استجاب ، واقنعني بسداد ما رأى ، فصحبتُهُ وسكتُّ . وناولهُ الرجل كرّاساً قد كُتِبتْ فيهِ منظومات وقصائد ، وطلب اليهِ ان يصلحها ، ويقيم اوزانها . وسمعتُ الرجل يترنم بشيء من ذلك ، فوالله لكأني اسمع انكر صوت خلق الله ، ووالله لزفير جهنم اعذب في اذني واشهى الى قلبي من ترنم هذا الرجل وغنائهِ في مثل هذه المنظومات . ولسؤال القبر ولرؤية منكر ونكير اهون عليَّ من البقاء في مجنيهِ هذا . ولكن الشيخ اكبَّ على تلك المنظومات يصلحها ، ويقيم اوزانها . ولبث في ذلك ساعة كاملة ، ما سئم في اثنائها ولا تحرج بل كان فيها يعلّم الرجل ويجهد نفسه في تفهيمه وكان فيها يخالق الرجل بخلق حسن ، ويتواضع له ، ولا يتظاهر عليهِ بعلم ولا بفهم ، بل جلسها اليهِ ساعة كما يجلسها الى فريق لهُ في المنزلة والعلم . ولولا اني كنتُ ساعتئذ اشغل نفسي بالشيخ اعجب بتواضعهِ وخلقهِ الكريم لكانت ساعةً اطولَ عليَّ من الدهر . واشدَّ من يوم الحساب

وهكذا كان — رحمهُ الله — يستوقفهُ الصغير او الوضيع فيقف لهُ ، ولا ينصرف حتى ينصرف السائل . واذا انت حادثتهُ في مسألة من مسائل العلم ، حدَّثك فيها بما يعلم حديثاً متواضعاً لا « يتعالم » فيهِ ولا يتعالى . وهو متواضع حتى في لباسهِ ، فاذا رأيتهُ ناجته طرفك ، ولم تجد في ملابسهِ شيئاً مما يتباهى بلبسهِ « الفقهاء » في الجزائر

﴿ علمهُ وادبهُ ﴾ — وهو وان كان استاذاً للآداب العربية في الجامعة الفرنسية بالجزائر ، ونال شهادة الدكتوراه في الآداب فانهُ في الواقع عالم اكثر مما هو اديب واعماله وان كانت في موضوعات ادبية فهي ابحاث علمية على طريقة علماء المشرقيات ، لا تكاد ترى عليها مسحة

ادبية فهي كلها ابحاث في اللغة العربية ، وفي الادب العربي وتاريخه وتاريخ رجاله ولكنك اذا انت قرأت بحثاً من هذه الابحاث فانهُ لا يشوقك ولا يغريك بادمان المطالعة ولا بالمضيّ فيها ، ذلك بان اسلوبها اسلوب علمي بحت لا لذاذة فيه . ولعل هذا هو السبب الذي جعل الشيخ المرحوم غير مشهور بين الادباء — واغلبهم من الناشئة — كما هو مشهور بين العلماء

قرأت لهُ ذات مرة فصلاً في تاريخ عاصمة الجزائر فقال انها كانت تسمى « مزغانة » او « مزغنّان » ثم « جزائر مزغنان » ثم « الجزائر » . . . واستمرّ يبحث هذا الموضوع ويستقصيه ، حتى قتلهُ بحثاً وتدقيقاً ، وحتى جاء فيه بما لم يسبقهُ اليه احد من المؤرخين . واعجبت انا بهذا الفصل ، وقابلت الشيخ المرحوم ، واظهرت لهُ اعجابي هذا ، ثم قلت لهُ « . . . ولا اكتمك يا سيدي انك كتبتهُ باسلوب غير طليّ ولا لذيذ . » فقال في شيء من التواضع والبساطة كثير: « خذ العلم ، وماذا يضيك اكان باسلوب طليّ . ام كان باسلوب غير طلي ولا لذيذ . وحسباك انك فهمت عني ما اريد ان اقول . وهل اللغة واساليبها الا اداة للفهم والتفهيم ؟ غير انكم معشر الشبان تغركم زخارف الالفاظ وتزويقاتها . حتى ان كثيراً من ادباء العربية تدوقفوا عند اللفظ وزخرفته وتحسينه لا يكادون يعدونهُ الى المعنى واللباب . » فقلت: « ولكني لو لم يكن يهمني هذا الموضوع بوجه خاص ، لما كنت قرأت فصلك هذا لتبسه وجفافه . واللغة واساليبها اداة للتفهيم لا تعدو ذلك كما تقول ياسيدي ، ولكن الناس يختلفون ولا يستوون في استعمال هذه الاداة فمنهم من يريد ان يعرب بها فيعجم ، ويبين فيبهم ، لا يعرف كيف يستعمل هذه الاداة فلا تفهم انت منهُ ما يريد ان يقول . ومنهم من يستعمل هذه الاداة للتفهيم استعمالا بارعاً ، وتسمعهُ انت فاذا كل عضو منك يسمع له ويصغي اليه ، واذا كل شيء فيك يفهم منهُ ويعقل . واذا هو يملك عليك قلبك ، ويملك سمعك وبصرك طوعاً او كرهاً . وهل خلدت هذه الكتب الادبية الخالدة الا بجمال اسلوبها ، وسحر بيانها ؟ وهل هؤلاء العبقريون في الادب الا بشرٌ قد امتازوا عن الناس بما رزقهم الله من الفصاحة والبيان ؟ وكثير من الناس من تكون له افكار سديدة ، ونظرات صائبة في هذه الحياة ، ولكنها تموت بموته ، ولا تخلد ، لانها لم تكن في اسلوب جميل فصيح تستحق به البقاء والخلود . ومن ذا الذي ينكر ان القرآن الكريم فصيحٌ مبينٌ ومعمنٌ في الفصاحة وسحر البيان الى حد الاعجاز ؟ . » فقال الشيخ : « صدقت ، ولكنك ما تزال شاباً تفتنك مظاهر الاشياء وزينتها ، وتشغلك عن ان تنفذ الى لبابها وصميمها ، وستعدل الايام رأيك هذا بعض التعديل ، وستصبح تنظر الى المعاني اكثر مما تنظر الى الالفاظ . . . » فقلت : « اني اريد لك ياسيدي ان تخلد بعدك آثارك في الادب ، وليس الى ذلك من

سبيل الا ان تكتبها باسلوب ادبي لذيذ ، لايبس فيه ولاجفاف» . فقال في شيء من الدعة كثير : « . . أبعد شيء يغني مني الادباء ؟ » فاستحييت وأبيت ان أُلح عليه في البحث

ولعلَّ السبب في ضعف أسلوب الشيخ ان معارفه فرنسية اكثر منها عربية . فهو استاذ الآداب العربية في جامعة الجزائر ، ولكنه يلقي دروسه ومحاضراته كلها باللغة الفرنسية . ويقول الذين قرأوه في الفرنسية ان اسلوبه فيها اسلوب حسن متين . وهو مع ذلك عالم باللغة العربية غزير العلم ومطلع عليها واسع الاطلاع . وحافظ ثقة من حفظها لا يكاد يغادر منها صغيرة ولا كبيرة الا احصاها

كتب اليَّ الاستاذ الشيخ عمر راسم الجزائري كتاباً وصف فيه الشيخ المرحوم وهو من اعرف الناس به ، فقال : « . . لقد كان ، رحمه الله ، معجماً لغوياً يمشي على وجه الارض . . » وهو وصف صادق لا مبالغة فيه ولا اغراق ، فقد كان يحفظ اللغة المدوَّنة في المعاجم . ويحفظ شيئاً كثيراً من اللغة التي لم تدوَّن بعد . وكان معنيًّا بجمع هذه الكلمات الكثيرة والتراكيب التي تجري على ألسنة الادباء في القديم والحديث ، ولم تدوَّن في المعاجم ، يبحث عنها بحثاً مستوعباً ، ويردها الى اصول عربية ردًّا صحيحاً . وكان ينوي ان يجعلها في كتاب يعرضهُ على المجمع العلمي العربي بدمشق ، ثم ينشره في الناس كتكملة لمعاجنا اللغوية

وابحاثه في اللغة والادب كلها ابحاث مبتكرة طريفة ، آخرها محاضرته التي القاها في مؤتمر المستشرقين الاخير باكسفورد (بلاد الانكليز) عن ابن خاتمة احد شعراء الاندلس في القرن الثامن الهجري ونشر خلاصها في مجلة «الشباب» التي تصدر في قسنطينة (الجزائر) وهي محاضرة قيّمة أحيى بها شاعراً عربيًّا ، وزاد بها في تاريخ آداب العرب صفحة مجيدة ذهبية وكان طبع كتباً كثيرة قديمة بعد ما صحّحها وعلق عليها

وكان مولعاً بجمع الكتب القديمة ، ونفائس الآثار فقد خلَّف في خزانته مجموعة نفيسة غالية من الكتب اليدوية المخطوطة

يقول كثير من الناس ان الحكومة الجزائرية هي التي اخذت بيد الشيخ المرحوم واعانته على اظهار مواهبه ونبوغه ، ولو انها اخذت كذلك بايدي غيره من العلماء والادباء في الجزائر لكان فيهم من يدانيه ومن يفوقه . وهذا قول صحيح لا شك فيه ، فان كثيراً من ادباء الجزائر وعلمائها ماتوا كما يقول الزهاوي شاعر العراق :

« ولقد يموت بلوغه من لا تساعده الظروف »

ولولا الحكومة لحيَّ الشيخ المرحوم تواضعاً وخمولاً . ولكنهُ خدم العلم اكثر مما خدم نفسه ، وخدم الجامعة الفرنسية بالجزائر خدمات جُلَّى ، وهو الذي جعل للكتب

العربية في مكتبة الجامعة قيمةً واعتباراً . وكانت الجامعة والحكومة تنتدبانه الى كثير من مهمات العلم ، فقد مثلها في مؤتمرات علمية عالية كثيرة عقدها المستشرقون وغير المستشرقين وكان لا يقع امتحان من الامتحانات العالية في شمال افريقيا الا وتجد الشيخ المرحوم يرأس لجنة من لجانه تتألف من كبار العلماء والادباء الفرنسيس . وقد اشتهر بين هؤلاء العلماء بالثقة العلمية لايماري ولا يداري ولا يحجب ولا يحابي

زرته في الجامعة ذات يوم من ايام الامتحان . فرأيت في فناء الجامعة فتاة رائعة على اشد ما تكون فتنةً وجمالاً قد رسبت في الامتحان على يده . وهي تبكي بكاءً شديداً . وقصصت عليه قصتها فقال : « وددتُ لو انها نجحتْ ، ولكن اسقطتها امانة العلم . وما هي قيمة العالم اذا لم يكن ثقةً ولا اميناً ؟ . . » . وكان ملمّاً باللغتين الالمانية والانكليزية المامًا حسناً مفيداً

﴿ تمسكه بدينه ﴾ — وكانت اول معرفتي بالشيخ ان كنتُ بتونس في سنة ١٩٢٢ وانا يومئذ لاازال اطلب العلم في الكلية الزيتونية ، وجاءتها في تلك السنة لجنة من العلماء الفرنسيس لامتحان طلبة البكالوريا في تونس . وكانت هذه اللجنة تحت اشراف المرحوم الدكتور ابي شنب ، فاستغرب الناس في تونس ان يكون عالم جزائري غير متجنس بالجنسية الفرنسية رئيساً مشرفاً على لجنة علمية فرنسية ، يرأس جلساتها بملابسه الجزائرية ، وزيه الجزائري . وتعالم الناس هذا الخبر ، وسمعته انا ، وفرحت به وداخلني يومئذ شيء من النخوة والكبرياء . وجمعتُ نفراً من اخواني الطلبة الجزائريين ، وذهبنا نزوره وكان اليوم يوم احد لايعمل فيه . فلقينا لقاءً حسناً ، وقبلنا قبولاً كريماً . وبينما نحن جلوس عنده اذ حضرت صلاة العصر ، فقام فصلى النافلة اربع ركعات ثم اقام الصلاة (المكتوبة) ولما فرغنا من الصلاة سألته « كيف تصنع اذا ادركتك الصلاة ، وانت في جلسة رسمية ؟ » فقال : « أقف الجلسة للاستراحة ، فيستريح زملاؤه بخطوات يمشونها ، ودخائن [1] يشعلونها ، واستريح باداء المكتوبة . واجد من الراحة في صلاتي مالا يجدون هم في مشيهم وتدخينهم . . . » واراد ان يمضي في حديثه هذا فقاطعته انا وقلت « ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبَ المسلمين خطبٌ يلجأ الى الصلاة ، ويقول : « أرحنا بها (الصلاة) يابلال » ففرح الشيخ المرحوم بهذه المقاطعة ، وقال : « لقد اردتُ ان اقولها فسبقتني بها » ثم ودّعناه وانصرفنا ونحن نتمنى لشباننا المتفرنجين ان يتعظوا بهذا الشيخ الجليل . فلقد كان لهم فيه اسوة حسنة ان كانوا يريدون الخير لانفسهم ولبلادهم

وله رأيٌ في هذه الالقاب الدخيلة قد لايخلو من الغرابة والشذوذ فهو يرى ان تجتنب

(١) الدخينة : السجارة . وضع الاديب الامام السيد مصطفى صادق الرافعي

الدخيل وان نجتهد في اجتنابه ولو الى الاستعاضة عنه بغريب اللغة المهمل الذي بطل استعماله. واذا اضطررنا الى الدخيل يجب ان تنطق به كما ينطق به في لغته الاصلية ، وندعه على حاله لا نمسه بأدنى تغيير، حتى تبقى داعاً عليه سمة الدخيل، لا يشتبه علينا بالاصيل ، ولا يختلط علينا الحابل بالنابل . وكنت ناقشته في هذا الرأي الذي تأباه ، طبيعة اللغة ، فكل لغة لا بد لنموها وحياتها من الدخيل ولا بد لهذا الدخيل ان يفقد صبغته الاصلية الاولى، ولا بد له ان يخضع لمنطق اللغة التي يدخلها ، يساغ في صيغها ، وتجري عليه قواعدها . وهذه اللغة الفرنسية مثلاً ، دخلها كثير من الكلمات العربية ولكن أية كلمة عربية دخلت الفرنسية وبقيت عربية في صيغتها على منطقها العربي ؟ وكلمة « محمد » مثلاً ينطق بها الفرنسيس على صيغ كثيرة كلها عوج فرنسية لا تجد بينها صيغة عربية . وهذا سبيل من سبل تمو اللغات وحياتها ، ما اللغة منه بد

﴿ آخر عهدي به ﴾— منذ عشرة اشهر ركبت القطار السريع من تلمسان الى وهران ، فاذا الشيخ المرحوم يركب هذا القطار نفسه ، فقطعنا الطريق في محادثة وحوار ، وكان بيدي جزء من اجزاء المقتطف فتناوله الشيخ من يدي وقال : « عهدي بك تحب الادب ، ولا تحب العلم فما بال « المقتطف » وهو مجلة علمية ؟ . » فقلت : « كلا ، يا سيدي ، اني لا احب من العلم ما كان صلباً يابساً ، ولا احب من الادب ما كان وهماً وخيالاً . وانما احب الحقيقة تكون في صورة رائعة من صور الادب والجمال . والمقتطف يصف لنا حقائق الحياة ، ويعلمنا العلم والحكمة ، في اسلوب من الادب ساحر لذيذ . وللمقتطف علي يد لا انساها له ابد الدهر . » قال وما هي ؟ فذكرتها له[(١)] فقال صدقت ، لقد احببت خير المجلات

وتكلمنا في الكتب اليدوية المخطوطة . فقال : ان تلمسان كانت دار علم ، ولا بد ان تبقى فيها بقايا من آثار السلف الصالح ، فاذا عثرت فيها على كتاب قديم او اثر من الآثار العلمية فاني ارجو ان تكتب الي به . وهنالك جمعيات من الالمان والاميركان قد ارسلت في مدائن هذه البلاد حاشرين يشترون لها الكتب العربية القديمة ، ويقتنون لها نفائس آثار اجدادنا . فقلت : بلغني ان « فلاناً » و « فلاناً » من اشياخ الطرق الصوفية في مراكش قد قاما بسياحة واسعة في شمال افريقيا ظاهرها « الطواف » على اتباعهم بغية « التدور » ولكنهما كانا يقتنيان الكتب المخطوطة ، ويبذلان المبالغ الطائلة الباهظة من المال في شرائها ونسخها . حتى ظفرا منها بشيء كثير . فهل لهذين « الشيخين » علاقة بهؤلاء الاميركان او الالمان ؟ . . فقال : هما بلا شك من اعوانهم الذين بثوا بهم لجمع الكتب المتناثرة المبعثرة في ايدي عامة المسلمين الذين لا يفرطون فيها الا بمثل هذه الوسيلة . فقلت : وقد سمعت

(١) قصة خصوصية ربما ذكرتها لقراء المقتطف في مقال انفرد بالمقتطف

ان حكومة مراكش قد اصدرت «ظهيراً» يمنع اصدار الكتب المخطوطة الى الخارج. فقال وانا الآخر سمعت بهذا ، ولكنه غير مفيد ، فلو ان الحكومة اشترت هذه الكتب، واقتنت هذه النفائس وحفظتها في « دار الكتب » لكان ذلك خيراً وانفع . لان هؤلاء الذين يبذلوا اموالاً طائلة في سبيل الحصول على هذه الآثار والكتب والنفائس لا يعجزهم ان يجدوا حيلة لتهريبها والفوز بها . واردتُ ان اتكلم ، ولكن القطار وقف بنا على مفرق الطرق فودعني الشيخ وودعتهُ ، فاخذ طريقهُ الى الجزائر ، واخذت طريقي الى وهران وكان هذا فراق بيني وبينهُ ، وكان ذلك آخر لقاء ، فما التقينا بعدها ، ولن نلتقي ابد الدهر

﴿ كيف ذكرته ﴾ — مات أبو شنب، واقيمت في ٢٠ مارس الاخير له حفلة تأبين ، فلم اذكره بشيء من ذلك وانما ذكرتهُ بسبب قد يكون غريباً ، ولكن هو السبب الواقع : المقتطف هو الذي اذكرنيه، وهو الذي جعلني اكتب عنه هذه الذكرى ، واحس لفقده بالام جسام.

وذلك اني قرأت في جزء اخير من المقتطف فصلاً عنوانه : «هل تندثر مدوّنات العصر؟ » على صديقي الفاضل المبرور، السيد الحاج عبدالقادر فرحجة في تلمسان فذكر لي ان في خزانته كتاباً مخطوطاً لا يدري ما اسمه ، ولا ما موضوعه ، ولا من مؤلفه ، قد كتبت على الصفحة الاولى منه احرف قال كاتبها عنها انها اذا كتبت على اول كتاب فانه لا يندثر ولا يبلى ! . . . فرغبتُ اليه ان يريني هذا الكتاب فتفضل فاطرنيه ، فسهرت عليه ليلة أطالعهُ فاذا الاحرف هي هذا : « كب كيكج كيكج » واذا كاتبها قد جلّد الكتابَ ، واحتفظ به احتفاظاً شديداً ، فما بلي ولا اندثر . واذا الكتاب صفحة ماجدة من تاريخ الجزائر ، بل من تاريخ الاسلام والشرق. واذا موضوع الكتاب في سياسة الملوك وتدبير الممالك . واذا مؤلفه عالم غزير العلم ، مطلع واسع الاطلاع ، وسياسي مجرّب حكيم . وهو السلطان موسى ابو حمو اشهر بني زيان (بني عبد الواد) ملوك تلمسان في التاريخ. وهنا ذكرتُ الشيخ المرحوم، وذكرتُ ما كنتُ عاهدتهُ عليه يوم اجتمعنا في القطار من أن اكتب اليه بكل ما أعثر عليه في تلمسان في الكتب القديمة ، والآثار النفيسة وهممت ان اكتب اليه عن هذا الكتاب النفيس ، فاذا به قد توفي الى رحمة الله . فلولا « المقتطف » ما كنتُ لأعثر على هذا الكتاب ، ولولا هذا الكتاب ما كنتُ لأذكر الشيخ المرحوم هذه الذكرى الاليمة

سلام الله عليك يا ابن ابي شنب ، لقد طبتَ حيًّا وميتاً . وكنت بعلمك وشرتيتك حجة الشرق على هؤلاء الشرقيين الذين لا يبتغون العلم والحياة الا من طريق التفرنج والاندماج. وقدمتَ على ربك مؤمناً عالماً ، « . . ومن يأته (ربّه) مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا ، جنات عدن تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكّى »

تلمسان (الجزائر) محمد السعيد الزّاهري